

المعتزلة في المغرب الأوسط بين السجال الفكري والمواجهة العسكرية

أ.د. محمد بن معمر
جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

مقدمة

تعد فرقة المعتزلة من أهم الفرق الإسلامية خوضا في علم الكلام وأمور العقيدة الإسلامية، فقد أثارت حولها المسائل ووضعت لها الأصول، وتعود الجذور الأولى للاعتزال إلى الفترة نفسها تقريبا التي ظهر فيها الشيعة والخوارج، وكان ذلك بالمدينة المنورة، أما الولادة الحقيقية لهذا المذهب فقد كانت بالبصرة وتعود إلى أواخر القرن الهجري الأول وأوائل الثاني. وهذا يعني أن "نشأة الاعتزال كانت في أول أمرها نشأة سياسية، لكنها في الوقت نفسه حملت بين طياتها نطفة مذهبية قدر لها أن تولد في نهاية القرن الأول أو بداية القرن الثاني الهجري"¹.

ويعتبر أبو حذيفة واصل بن عطاء (80-131هـ) المعروف بالغزال²، أستاذ المعتزلة الأول ومؤسس فرقته، وهو أحد البلغاء المتكلمين في علوم الكلام، وهذا ما أجملته عبارة القاضي عبد الجبار التالية: "ليس أحد أعلم بكلام غالبية الشيعة، ومارقة الخوارج، وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة، وسائر المخالفين، والرد عليهم، منه"³. رباه بالمدينة محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب وعلمه مع ابنه أبي هاشم عبد الله، وانتقل بعد موته إلى البصرة حيث لازم الحسن ابن أبي الحسن البصري مدة ثم اعتزله⁴.

وإليه يعزى الفضل في إقامة نظام مذهب الاعتزال ووضع أصوله، وإحكام خططه وأساليبه، وتحديد أهدافه ومراميه، وذلك من خلال مؤلفاته العديدة وعلى رأسها "كتاب الدعوة". وقد اتخذ من البصرة مركزا لدعوته حيث وجه دعاته ورسله إلى مختلف أقاليم العالم الإسلامي وجهاته ومنها خراسان واليمن والجزيرة والكوفة والشام والمغرب وغيرها.

دخول الاعتزال إلى بلاد المغرب

لقد كانت بلاد المغرب من الأقاليم التي وجه إليها واصل بن عطاء أحد رسله، "وفرق رسله في الآفاق يدعون إلى دين الله، فأنفذ إلى المغرب عبد الله بن الحارث، فأجابه الخلق"⁵. ولم يذكر النص على وجه التحديد، التاريخ الذي وجد فيه الاعتزال طريقه إلى بلاد المغرب، ولا الكيفية التي نشط بها داعية المعتزلة في نشر المذهب وجذب الاتباع حتى أجابه هؤلاء الخلق، ولا القاعدة التي انطلق منها لبث فكره.

وإذا وضعنا في الحسبان أن وفاة واصل بن عطاء كانت سنة 131هـ، أدركنا أن قدوم داعيته عبد الله بن الحارث إلى بلاد المغرب كان إبان العقود الثلاثة الأولى من القرن الهجري الثاني "وقياسا على انتشار المذاهب الأخرى، فإن دعاة الاعتزال، وهم من التجار والعلماء، قد اتخذوا من القيروان مركزا للدعوة حيث جرى الاتصال برؤساء القبائل الوافدين إليها"⁶، ذلك أن مدينة القيروان كانت وحتى منتصف القرن الهجري الثاني المركز الأم للثقافة العربية الإسلامية ببلاد المغرب.

وعلى العموم فقد انتشر المذهب في أقاليم بلاد المغرب الثلاثة، إفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى. ففي إفريقية ورغم الظروف الصعبة التي أحاطت بانتشاره بسبب غلبة المذاهب الأخرى وعلى رأسها مذهب مالك، إلا أن دعائه استطاعوا كسب الكثير من الأتباع والأنصار، وصار المعتزلة جماعة قوية لها شيوخها ورؤساؤها، وقد ذكر الخشني في طبقاته تحت عنوان "تسمية أهل المناظرة والجدل من طبقة العراقيين" بعض مشاهيرهم⁷.

ومن هؤلاء سليمان ابن أبي عصفور المعروف بالفراء، الذي كان من أهل الجدل والمناظرة، وكان يقول بخلق القرآن، وله تأليف في ذلك⁸. وعبد الله بن الأشج الذي كانت له رحلة ودخل العراق، وكان من أهل الجدل والمناظرة⁹. ومنهم رجل يعرف بالعمشاء ويكنى أبا إسحاق، يذهب إلى خلق القرآن وينظر فيه المناظرة الشديدة، وله في ذلك داعية وله لمة وأصحاب وأحزاب في ذلك يجالسونه ويختلفون إليه¹⁰.

ومن مظاهر نفوذ المعتزلة في إفريقية الأغلبية، اختصاصهم بمناصب القضاء والفتيا على عهد الأمير زيادة الله الأول (201-223هـ) الذي كانت دولته تدين بالولاء والطاعة للخلافة العباسية، فاستجاب لمشيئة الخليفة العباسي المأمون (198-218هـ) الذي تربى في أحضان الاعتزال وقرب أهله. وقد أسند الأمير الأغلب قضاء القيروان إلى أبي محرز محمد بن عبد الله الكناني المعتزلي، وأسد بن الفرات، وجعلهما شريكين في القضاء، ولم يعلم قبلهما أن اشترك قاضيان بمصر واحد في المنصب نفسه¹¹.

أما في المغرب الأوسط، وإن كانت المعلومات والأخبار تعوزنا عن معرفة أسماء الدعاة وجهودهم في نشر الاعتزال، فإننا لم نعدم النصوص الهامة التي تثبت وجود أتباع المذهب وأنصاره بهذا الإقليم على عهد الدولة الرستمية حيث كانوا يعيشون في كنفها. ففي أيام إمامها الثاني عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (168-208هـ) كان "مجمع الواصلية (المعتزلة) قريبا من تهرت، وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها"¹². كما أطلق عليهم ابن خلدون وصف الظواغن ساكني الخيام¹³. ويضيف ابن خرداذبة أنه "في يدي إبراهيم بن محمد البربري المعتزلي مدينة تلي تاهرت تدعى أيزرج"¹⁴. وهي المدينة التي وردت عند اليعقوبي على أن أهلها من قبيلة مطماطة البترية¹⁵. في حين اجملت الرواية الإباضية الانتماء القبلي لمعتزلة المغرب الأوسط على النحو التالي: "والواصلية قوم من البربر أكثرهم من زناتة"¹⁶.

وأما في المغرب الأقصى فقد اعتنقته قبيلة أوربة الضاربة حول مدينة ويلي قاعدة جبل زرهون على يد زعيمها وكبيرها إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي المعتزلي الذي أوى إدريس الأكبر بعد فراره من موقعة فخ وذلك في سنة 172هـ. وإذا كانت المصادر¹⁷ تؤكد انتماء الزعيم الأوربي إلى مذهب الاعتزال، فإنها تهمل تاريخ وكيفية اعتناقه المذهب، وهل كان ذلك على يد الدعاة الذين أنفذهم واصل بن عطاء أم أنه رحل إلى القيروان مركز الدعوة الأول ببلاد المغرب، أو إلى العراق مركز الدعوة الأم؟.

ومن مدن المغرب الأقصى التي غلب عليها الاعتزال أيضا، يذكر البلخي في معرض كلامه عن الكور التي سادها هذا المذهب قائلا: "ومن المغرب البيضاء"¹⁸

وهي كورة كبيرة، يقال أن فيها مائة ألف تحمل السلاح يقال لهم الواصلية، وطنجة هي بلاد إدريس بن إدريس وأهلها معتزلة"¹⁹. ويضيف في موطن آخر قائلا: "وأنصار ولد إدريس بن إدريس إلى يومنا هذا (يقصد سنة نيف وتسعين ومائتين) بطنجة وما والاها من بلاد المغرب هم المعتزلة"²⁰.

وقد أورد القاضي عبد الجبار أن بشير الرجال وهو من شيوخ معتزلة البصرة لما قتل في باخمري بين الكوفة وواسط، لحق بعض أصحابه وأولاده بالمغرب، فغلبوا على مدن منها، وأظهروا الحق فيها²¹. كما أشاد الشاعر المعتزلي صفوان الأنصاري بجهود دعاة الاعتزال الذين أنفذهم واصل بن عطاء إلى أنحاء العالم الإسلامي في قصيدة جاء في مطلعها:

له خلف شعب الصين في كل ثغرة إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم تهكم جبار ولا كيد ماکر²²

هكذا تغلغل الاعتزال في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى، وتمكن دعاة من كسب آلاف الأنصار، بل إنهم استطاعوا التأثير في بعض فرق الصفيرية التي قالت بالعدل مثل فرقة المعروية²³، وخاضوا غمار الحرب والسياسة على حد سواء، فضلا عن سجلاتهم الفكرية ونشاطهم الكلامي الذي كان ميزتهم الأساسية التي عرفوا بها في المشرق قبل المغرب.

نشاط المعتزلة في المغرب الأوسط

يستفاد من الإشارات السابقة الواردة عند البكري وابن خلدون حول مضارب المعتزلة في المغرب الأوسط أنهم لم يكونوا من سكان العاصمة تهرت ولكنهم كانوا بدوا ظواعن يضربون خيامهم بالقرب منها، ولعل عددهم الكبير، وغلبة الطابع البدوي عليهم، وخلافهم المذهبي مع الرستميين، كان كفيلا بمنعهم من سكنى العاصمة الرستمية، ولكن في إشارة ابن خرداذبة إلى تجمع المعتزلة الثاني في مدينة أيزرج، وهم من بربر مطماطة كما ذكر اليعقوبي، ما يدل على أن طائفة منهم كانت من ساكنة المدن.

ومن خلال استقراء النصوص المتوفرة تبين أن نشاط المعتزلة في المغرب الأوسط لم يقتصر على الطابع الفكري السجالي، شأن نظرائهم في المشرق، ولكنه جمع إلى ذلك الطابع الحربي والجنوح إلى الصدام المسلح مع السلطة القائمة وهو

ما لم يعرفه المشرق مصدر الاعتزال، وهذا راجع إلى اختلاف ظروف المشرق والمغرب آنذاك، كما أن جميع المذاهب والتيارات الوافدة من المشرق إلى المغرب قد اصطبغت بالصبغة المغربية وتأثرت بالعوامل المحلية ومنها العصبية القبلية ودورها في النزاعات المختلفة، فكثيرا ما حملت الخصومات والنزاعات طابعا عرقيا وعصبيا وليس مذهبيا.

ومن نشاط المعتزلة الحربي ضد الرستميين حكام المغرب الأوسط على عهد الإمام الثاني عبد الوهاب، الحرب التي تناقلتها المصادر الإباضية تحت مسمى "محاربة الواصليّة للإمام عبد الوهاب" بأسلوب مكرر متشابه حيث تجمع على أن هؤلاء الواصليّة أكثرهم من قبائل زناتة²⁴، وأنهم ثاروا على الإمام الرستمي عبد الوهاب في ظروف صعبة كانت تمر بها إمامته وذلك خلال الفترة التي تلت مباشرة الحرب التي خاضها هذا الإمام ضد النكار أتباع يزيد بن فندين أول المنشقين عنه والمعارضين لإمامته بعد وفاة أبيه عبد الرحمن. وما كاد يقضي على هؤلاء النكار حتي قامت عليه طائفة المعتزلة الذين انتهزوا فرصة ضعف الإمامة وانشقاق الصف الإباضي. ولم يكن بالتأكيد دافع هؤلاء من وراء الثورة سياسيا فحسب، تمثل في استغلال الوضع، بل كان قناعة مذهبية أيضا، حين رفض المعتزلة وهم من "العدلية" مبدأ التوريث الذي تبنته الدولة الرستمية بدل الاختيار.

يقول صاحب السير: وحدث غير واحد من أصحابنا أن الإمام عبد الوهاب لما أوهن الله على يديه كلمة النكار وأورثهم الخزي والعار تحركت الواصليّة بعض الحركة وهم قوم من البربر أكثرهم من قبائل زناتة وذلك حين أحسوا ببعض الفرقة في الإباضية وأرادوا أن ينتهزوا بعض الفرصة²⁵. ويواصل صاحب السير الحديث عن تفاصيل هذه الحرب وعن طلب الإمام عبد الوهاب الدعم العسكري والعلمي من أتباعه في جبل نفوسة، وكيف وصله هذا الدعم الذي استطاع بفضلله أن يثخن في المعتزلة قتلا ويهزمهم، ولم يكد يفلت منهم إلا اليسير²⁶، وبعد ذلك دخلت فلول المعتزلة تحت الإمام وطاعته ووضعت الحرب أوزارها²⁷.

واضح من الرواية الإباضية أنها تتسم بالمبالغة في القضاء على المعتزلة، فالدعم العسكري الذي جاء إلى تهرت من نفوسة لم يكن جيشا كما أراده الإمام الرستمي ولكنه جاء في صورة أربعة رجال لا غير، وقد ذكرت الرواية الإباضية

أسماءهم²⁸، كما تفاجأ الإمام الرستمي نفسه بهذا العدد وساءه الأمر، ولكن النفر الأربعة طمأنوه ووعدوه بالنصر، ولم يكن هؤلاء الأربعة جميعا أبطال مبارزة ولكن حسب الرواية الإباضية فإن رجل المبارزة الوحيد هو أيوب بن العباس الذي نسبت إليه بطولات خارقة في الانتصار على المعتزلة.

لعل هزيمة المعتزلة رغم كثرة عددهم تعود إلى ضعف خبرتهم وقلة تجربتهم في خوض الحروب سيما وأن هذه أول مواجهة عسكرية جمعتهم مع الرستميين، ولم يكن دعم نفوسة من خلال النفر الأربعة هو سبب الهزيمة كما تقول الرواية الإباضية، فهو مجرد دعم معنوي. وبغض النظر عن عدد القتلى في صفوف المعتزلة فإن فلولهم قد دخلت في طاعة الإمام الرستمي كما تقول الرواية الإباضية، وهذا ما يؤكد ابن خلدون متحدثا عن الإمام الرستمي عبد الوهاب حين وصفه برأس الإباضية والصفورية وأن الواصلية كانوا من أتباعه²⁹. وقد خفت نشاط واصلية المغرب الأوسط إثر هذه الهزيمة، ولم يرد ذكرهم في المصادر إلا في أواخر أيام الدولة الرستمية حين اشتركوا مع غيرهم من الفرق الإسلامية في محاربة الإباضية، ولكنهم استمروا في نشاطهم الفكري كما سنرى.

تثير الحرب أنفة الذكر مسألة العلاقة المذهبية بين معتزلة المغريرين الأوسط والأقصى وهي العلاقة التي لم تولها المصادر أي اهتمام وتركت لنا فراغا كبيرا في هذا الجانب، ومن الإشارات القليلة الواردة في هذا المجال والقبالة للتأويل تلك التي جاءت بها الرواية الإباضية في سياق حديثها عن الحرب السابقة حين قالت: "فتكاثفت كلمة الواصلية واجتمعوا من كل نقب، وجازوا من كل أوب، فأنحازوا عن تاهرت وأخذوا عن جبالها، وهم أصحاب العمود...".³⁰

حاول صاحب كتاب الخوارج في المغرب الإسلامي تفسير هذه العبارة وتأويلها على أن أمير الدولة الإدريسية إدريس الثاني كان من وراء تمرد الواصلية على الإمام الرستمي عبد الوهاب، وأنهم كانوا معضدين بإخوانهم في المغرب الأقصى الذين جاؤوهم من كل أوب³¹.

إن القول بأن إدريس الثاني كان وراء هذا التمرد فذلك أمر غير مؤكد، وأن يكون معتزلة المغرب الأقصى قد التحقوا بإخوانهم في المذهب بالمغرب الأوسط بناء على عبارة "من كل نقب وأوب"، فهي مسألة غير مؤكدة أيضا. لأن ما يستنتج من

النص نفسه، الذي لا يشير صراحة إلى واصلية المغرب الأقصى، أن الثائرين على الإمامة الرستمية كانوا من أصحاب العمود، أي من أهل البادية الضاربين في نواحي تيمرت، وهو الوصف الذي يتطابق مع ما ذكره البكري وابن خلدون حين أشارا إلى واصلية المغرب الأوسط على أنهم أصحاب خيام ظلوعن. بينما المعروف عن أشهر قبيلة اعتنقت الاعتزال في المغرب الأقصى وهي قبيلة أوربة كانت من البرانس المستقرين في منطقة "متوسطة خصبة كثيرة المياه والغروس والزيتون"³².

ويضيف صاحب كتاب الخوارج في المغرب الإسلامي أن تمرد الواصلية على الإمام عبد الوهاب كان سنة 195هـ، ولكن الثابت في المصادر الإباضية أن أول فتنة داخلية واجهها هذا الإمام بعد توليه السلطة هي فتنة النكار بزعامه يزيد بن فندين الذين أنكروا إمامته واعتبروها غير شرعية، ولكن الإمام عبد الوهاب نجح في القضاء عليها وهو النجاح الذي اعتبره ابن الصغير خطوة نحو اشتداد ملكه حين يقول: ثم اشتد أمر عبد الوهاب وقوي عليه وانتقل من حال الإمامة إلى حال الملك³³.

وبعد فتنة النكار التي لم تعطنا المصادر الإباضية تاريخاً محدداً لها، تخبرنا أن حرب الواصلية جاءت بعدها مباشرة وهو ما سلف الحديث عنه في الفقرات السابقة. غير أن الرواية الإباضية لا تذكر تاريخ هذه الحرب أيضاً كعادتها في أغلب الوقائع التاريخية، ولكن من المؤكد أن هذه الأحداث قد واجهت الإمام عبد الوهاب في صدر ولايته (168-208هـ).

كما تذكر هذه المصادر أن عبد الوهاب بعد قضائه على مشاكله الداخلية بما فيها تمرد الواصلية وتمكنه من الخلافة وانقطاع مادة الفساد والفتنة وهذوء الأوطان، أراد القيام بفريضة الحج فاتجه صوب المشرق من أجل ذلك، ولكن أهل جبل نفوسة التابعين لدولته أقنعوه بعدم الذهاب إلى الحج لأن في ذلك مخاطرة بحياته وخوفه من خطر العباسيين، وبعث إلى أرباب المذهب في المشرق يستفهم في هذا الأمر فأجابوه بالأحج عليه وأرسل رجلاً يحج مكانه.

وهنا تخبرنا المصادر الإباضية أن الإمام عبد الوهاب مكث في جبل نفوسة مدة سبعة أعوام كاملة³⁴ دون أن تحدد لها بداية أو نهاية، ولكن أثناء إقامة عبد الوهاب بجبل نفوسة وقعت الحرب بين هواره وعبد الله بن إبراهيم الأغلي في

طرابلس، فتحرك ابن رستم على رأس جيش كبير من نفوسة لنجدة هواره وحاصر المدينة وانتهى الحصار بعقد صلح بين الطرفين، وهو الحدث الذي أرخته المصادر التاريخية بسنة 196هـ³⁵.

فلا يعقل أن يكون تمرد الواصلية على عهد عبد الوهاب بتحريض من إدريس الثاني قد تم سنة 195هـ، ففي هذا التاريخ كان الإمام عبد الوهاب مقيما، خلال رحلة السنوات السبع، بجبل نفوسة الذي يبعد عن تيمرت بأكثر من مسيرة شهر على ظهور الإبل، وهو الجبل الذي أمد عبد الوهاب بنجدة عسكرية وعلمية في حربه مع الواصلية كما رأينا. وعليه فإنه من غير المستبعد أن يكون تمرد الواصلية على عبد الوهاب قد حدث في وقت كان فيه إدريس الثاني لا يزال طفلا رضيعا.

وعلى الرغم من خلو الرواية الإباضية من إشارة صريحة إلى اشتراك معتزلة المغرب الأقصى إلى جانب إخوانهم في المغرب الأوسط ضد بني رستم، فإن ذلك لا ينفي العلاقة المذهبية بينهما، وأنه ليس بالضرورة أن يؤازروا بعضهم بعضا في هذه الثورة أو غيرها. فمن المستبعد أن يجد الاعتزال طريقه إلى المغرب الأقصى دون أن يمر حتما بالمغرب الأوسط. ومن المستحيل أن يرحل معتزلة المغرب الأقصى إلى القيروان أو البصرة إلا عبر المغرب الأوسط، وعليه فإن الصلات المذهبية بين هؤلاء وأولئك، وإن كانت المصادر قد أغفلت ذكرها، فإنها لا محالة كانت قائمة.

ولما انهزم الواصلية وفلت شوكتهم على يد الإمام عبد الوهاب، فإنه من المحتمل جدا أن يكون بعضهم ممن رفضوا الدخول في طاعة الإمام الرستمي، قد تركوا مواطنهم بالمغرب الأوسط واتجهوا صوب إخوانهم بالمغرب الأقصى حيث السلطة الإدريسية التي كانت على وفاق تام مع المعتزلة.

وأما عن نشاط المعتزلة الفكري فتقول الرواية الإباضية إن هزيمة المعتزلة على يد الإمام الرستمي لم تكن هزيمة عسكرية فحسب بل كانت هزيمة فكرية أيضا، ذلك أن الحرب بين الطرفين قد جرت في ساحة المناظرة قبل أن تتحول إلى ساحة الوغى، فقد اشترط الإمام الرستمي عبد الوهاب على أتباعه في جبل نفوسة حين استمد منهم الدعم العسكري أن يبعثوا إليه رجلا مناظرا بارعا في فنون الرد على المخالفين ورجلا عالما بفنون التفسير، تحسبا لمواجهة المعتزلة على الجبهة

الفكرية. ومن الواضح أن الإمام كان متخوفا من مواجهة هؤلاء المعتزلة على الصعيدين الحربي والفكري، فقد خبرهم بنفسه وناظرهم فوجدهم مجادلين بارعين ولم يكن يومئذ في تهرت من يستطيع مناظرتهم والتصدي لهم بمن في ذلك الإمام نفسه.

وكما نسبت الرواية الإباضية بطولات خارقة إلى رجل نفوسة المبارز أيوب بن العباس في كسر شوكة المعتزلة في ساحة الوغى، فعلت كذلك مع رجل نفوسة الثاني مهدي الويغوي البارع في فنون الرد على المخالفين. فبعد وصوله مع النفر الأربعة إلى تهرت واستراحته بضعة أيام خرج ذات مرة عن أصحابه وتغيب عنهم ولم يعرفوا وجهته، ولما تأخر إلى ما بعد العشاء سألوه أين تغيب فقال لهم: إني رددت إلى دين الله سبعين عالما من أهل الخلاف في غيبوتي عنكم³⁶.

وتضيف الرواية نفسها أنه لما اصطفت الصفوف يوم المعركة خرج مهدي الويغوي بين الصفين ومعه الإمام الرستمي مع وجوه من أصحابهما، كما خرج من جهة المعتزلة الفتى المناظر مع وجوه من أصحابه، وكان مشهورا بالمناظرة في أوساطهم، وتقدم مهدي إلى الفتى وجرت بينهما وجوه من المناظرة في مسائل، والناس يعلمون ما يقولان، ولم يفلح أحدهما على صاحبه. ثم دخلا في فنون من العلم خفيت على الحاضرين باستثناء الإمام الرستمي الذي كان يعلم ما يقولان، ثم ارتقى مستوى المناظرة إلى أمور لم يفقهها لا الإمام ولا غيره. عندها ألقى مهدي النفوسي قلنسوته وجعلها بين ركبتيه، وكان ذلك علامة بينه وبين أصحابه على انتصاره، فصاح أصحابه بالتكبير فرحة بانتصار المعتزلي وانتصار أصحابهم. ولما نظر المعتزلي إلى غريمه وما فعل، وكانا قد اتفقا في السر بطلب من المعتزلي على أن يستر الغالب على المغلوب، قال غدرتني يا مهدي³⁷.

يتضح من السطور السابقة حول دور التيار الواسلي المعتزلي الفكري أوائل الدولة الرستمية أن الرواية الإباضية التي انفردت بتناوله قد غلب عليها الانحياز لصالح المذهب الإباضي والتحامل على الواسلية الذين كانوا في نظرها من المخالفين، وكذلك المبالغة في تصوير هزائمهم في الساحتين الفكرية والحربية. وما دمنا نفتقد رواية الخصم وأصحاب الرأي المخالف من الواسلية ليس بإمكاننا الوقوف على حقيقة ما جرى، ولكن رغم ذلك فإن هذه الرواية الأحادية قد

أما طت اللثام عن الجذور الأولى للثقافة الإسلامية الوسيطية وأصولها الفكرية في المغرب الأوسط.

استأنف المعتزلة نشاطهم الكلامي في أواخر الدولة الرستمية على عهد إمامها الخامس أبي اليقظان محمد بن أفلح (261-281 هـ)، وهذا ما يثبت ابن الصغير المالكي، وهو مصدر معاصر لأواخر الدولة الرستمية وممن عاش في كنفها مخالفا لمذهبها، فقد أشار إلى اللقاء الذي جمع المعتزلة مع الإباضية بنهر مينة قرب العاصمة تيمرت لموعده جعلوه فيما بينهم للمناظرة³⁸. وجاءت إشارة ابن الصغير إلى هذا اللقاء في ثنانيا حديثه عن مجلس الإمام أبي اليقظان في المسجد الجامع بتيمرت وعن أبرز العلماء الذين كانوا يتصدرون هذا المجلس مثل عيسى بن فرناس، ومحمود بن بكر، وأبي عبيدة الأعرج، وعبد الله بن اللمطي.

وعند ذكره لعبد الله بن اللمطي قال ابن الصغير نقلا عن أحمد بن بشير، وهو من مصادره الشفوية الأساسية، إن هذا الرجل كان ممن حضر المناظرة التي جمعت المعتزلة والإباضية، وكان كثير من الحضور، خصوصا من قبيلة هواة، يتسمى بعبد الله، ولما نادى المعتزلي المناظر اسم عبد الله مرتين، كان في كل مرة يجيبه رجل من القوم فيقول لست أريدك، وفي الثالثة قال ابن اللمطي علمت أنه يريدني ولكنني كرهت أن أجيبه خوفا من سؤاله. ولما سأله المعتزلي قائلا: هل تستطيع الانتقال من مكان لست فيه إلى مكان لست فيه، قال لا، ثم قال هل تستطيع الانتقال من مكان أنت فيه إلى مكان لست فيه، قال إن شئت، فقال المعتزلي خرجت منها يا ابن اللمطي.³⁹

إن رواية ابن الصغير حول هذه المناظرة رغم أن صاحبها كان مخالفا لمذهب الرستميين إلا أن مصدرها يبقى إباضيا وهو أحمد بن بشير، لذلك جاءت مشابهة للمناظرة السابقة على عهد الإمام عبد الوهاب، فهي تشير إلى تخوف الطرف الإباضي وإحجامه دوما عن مواجهة الخصم المعتزلي ومع ذلك فهو إما منتصر أو في مستوى الرد، كما أهملت تماما ذكر أسماء المناظرين من التيار الواسلي المعتزلي واحتفظت لنا بأسماء مخالفهم من الإباضية، وأما ما تحمله هذه الرواية من جديد فهو الكشف عن جانب من طبيعة الأسئلة مثار الجدل الكلامي العقدي يومئذ، وهو ما كان سائدا في المشرق.

واستمرت جيوب الاعتزال قائمة ببلاد المغرب إبان القرن الرابع الهجري، مصداق ذلك ما ذكره ابن حوقل حين يقول: "فأما أهل قسطلية وقفصة ونفطة والحامة وسماطة وأهل جبل نفوسة فشرارة، تجاوزهم من البربر زناتة ومزاتة قبيلتان عظيمتان الغالب عليهما الاعتزال من أصحاب واصل بن عطاء"⁴⁰. ويضيف أيضاً: "ومن بأداني سجلماسة والمغرب، بين السوس وأغمات وفاس، في كثير منهم الشراية والتدين القوي، وفي بعضهم الاعتزال"⁴¹.

ولم يجد أبو الطيب محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أبي بردة البغدادي، الذي كان من أعلم الناس بالمذهب الشافعي وأفهمهم وأحسنهم قياماً به، حين طارده السلطة الأموية في الأندلس بتهمة الاعتزال سنة 373هـ، سوى مدينة تهرت يلتجأ إليها ويستقر بها عند بنت له هناك حتى وفاته بها⁴².

وعلى العموم فقد قدر للاعتزال أن يجد طريقه من المشرق إلى بلاد المغرب خلال القرنين الأول والثاني الهجريين، على غرار بقية المذاهب الإسلامية الأخرى. كما استطاع المعتزلة القيام بدور سياسي واضح، ونشاط فكري فعال، ولكنهم لم يتمكنوا من الصمود في وجه التطورات والظروف الصعبة التي أصبحت تحيط بهم في بلاد المغرب، فانسحبوا من الميدان تاركين المجال لغيرهم من المذاهب وعلى رأسها المذهب المالكي الذي عرف شيوخته بمحاربة الاعتزال وأهله. وحسبهم أنهم تركوا بصماتهم الفكرية الواضحة على العقيدة التومرتية⁴³، التي أفضت إلى قيام الدولة الموحدية.

الهوامش

- 1- فؤاد سيد، مقدمة كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تونس: الدار التونسية للنشر، 1986، ص: 25.
- 2- ترجمته عند: البغدادي أبو منصور عبد القاهر، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، بيروت: دار الأفاق الجديدة، 1982، ص: 96 – 100. ابن خلكان شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق احسان عباس. بيروت: دار القلم، 1971، ج 6، ص: 7-11. العماد الحنبلي أبو الفلاح عبد الحفي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت: دار المسيرة، 1979، ج 1، ص: 182-183.
- 3- القاضي عبد الجبار، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تونس، 1986، ص: 234.
- 4- البلخي عبد الله بن أحمد، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تونس، 1986، ص: 64.
- 5- المصدر نفسه، ص: 66.
- 6- محمود إسماعيل، مغربيات، المحمدية: مطبعة فضالة، 1977.
- 7- الخشني محمد بن الحارث، كتاب طبقات علماء إفريقية، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ص: 219-222.
- 8- المصدر نفسه، ص: 219.

- 9- المصدر نفسه، ص: 220.
- 10- المصدر نفسه، ص: 221.
- 11- أبو العرب محمد بن تميم، كتاب طبقات علماء إفريقية، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ص: 84.
- 12- البكري أبو عبيد، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليفن واندري فيري، تونس: الدار العربية للكتاب، 1992. ص: 735.
- 13- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992. مج 6، ص: 144.
- 14- ابن خرداذبة عبيد الله بن عبد الله، المسالك والممالك، بغداد: مكتبة المثنى. دت. ص: 88.
- 15- اليعقوبي أحمد بن واضح، كتاب البلدان، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1988. ص: 112.
- 16- أبو زكريا يحيى بن أبي بكر، سير الأئمة وأخبارهم، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982. ص: 102. الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، قسنطينة: مطبعة البعث، 1974. ج 1، ص: 57.
- 17- البكري، المسالك، ص: 799. ابن أبي زرع علي، الأئمة المطرب بروض القرطاس، الرباط: دار المنصور، 1973. ص: 19.
- 18- لم يزد ياقوت الحموي في معجم البلدان في حق هذه المدينة عن قوله: " والبيضاء أيضا كورة بالمغرب ". ج 1، ص: 529.
- 19- البلخي، فضل الاعتزال، ص: 109-110.
- 20- المصدر نفسه، ص: 119.
- 21- القاضي عبد الجبار، فضل الاعتزال، ص: 227.
- 22- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1948. ج 1، ص: 25.
- 23- البلخي، فضل الاعتزال، ص: 109.
- 24- أبو زكرياء السير، ص: 101-113. الدرجيني، الطبقات، ج 1، ص: 57-65-الشماعي أحمد بن سعيد، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، تونس: كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، 1995. ص: 61-66. ولكن ابن الصغير يذكر حربا أخرى دارت بين الإمام عبد الوهاب وهوارة، ص 52 وما بعدها.
- 25- أبو زكرياء، السير، ص: 102. الدرجيني، الطبقات، ص: 57.
- 26- أبو زكرياء، السير، ص: 110.
- 27- الشماخي، السير، ص: 65.
- 28- هم مهدي الويغوي المناظر، وأيوب بن العباس المبارك، ومحمد بن يأنيس المفسر، ومحمد أبو محمد، وقيل أبو الحسن الأبدلاني. الدرجيني، الطبقات، ج 1، ص: 57.
- 29- ابن خلدون، العبر، مج 6، ص: 144.
- 30- أبو زكرياء، السير، ص: 102. الدرجيني، الطبقات، ج 1، ص: 57.
- 31- محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي، بيروت: دار العودة، 1976. ص: 148. مغربيات، ص: 135.
- 32- ابن أبي زرع، القرطاس، ص: 19.
- 33- ابن الصغير المالكي، أخبار الأئمة الرستميين، بيروت: دار الغرب الإسلامي. ص: 51.
- 34- أبو زكرياء، السير، ص: 116. الدرجيني، الطبقات، ج 1، ص: 66. الشماخي، السير، ص: 67.
- 35- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 5، ص: 157. ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص: 95. ابن خلدون، العبر، مج 4، ص: 235، وهو تاريخ يثبته الباحث نفسه في كتابه الأغالية ط 1978، ص: 105، بل إنه اتهم في الهامش رقم 33 من الصفحة نفسها ابن خلدون بالخطأ في ذكر سنة 176هـ بدل 196هـ (مج 6، ص: 121) ولكن الخطأ

- في الواقع هو من تحريف الناسخ في ط بولاق التي اعتمدها الباحث، ولكن الطبقات الأخرى تذكر سنة 196هـ وحتى في مج 6 نفسه من طبعة بولاق وردت سنة 196هـ في ص: 141.
- 36- أبو زكرياء، السير، ص: 106.
- 37- المصدر نفسه، ص: 108.
- 38 ابن الصغير المالكي، أخبار الأئمة الرستمين، ص: 93-95.
- 39- المصدر نفسه، ص: 94.
- 40- ابن حوقل أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، دون تاريخ. ص: 93-94.
- 41- المصدر نفسه، ص: 99.
- 42- ابن الفرضي أبو الوليد عبد الله بن محمد، تاريخ علماء الأندلس، بيروت: دار الكتب العلمية، 1997. ص: 384-385.
- 43- عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1983. ص: 362.